المجمع 21 (2025/1447). 255-284

الشّعر ودوره في السّرد في الكتابات التّاريخيّة المملوكيّة في مصر

مصطفى علي عاصي[1]

Poetry and Its Role in Shaping Historical Narratives in Mamluk Historiography in Egypt

Mustafa Ali Assi

Abstract

This study examines historical writings from the Mamluk period (1250–1517). Previous research on Mamluk historiography shows that the use of literary and narrative elements was more prominent among non-scholarly historians, especially military figures who were mostly Egyptian. However, these studies have largely overlooked poetry's role in producing historical narratives and historiography. This research offers a detailed comparison of how a group of historians from the Mamluk period in Egypt used poetry creatively. It treats historical texts as literary works, going beyond the idea that they are simply sources of historical information for researchers and scholars. In fact, Mamluk historical literature includes numerous poems because of their semantic and aesthetic approaches to historical narration. While these texts provide historical knowledge, their authors aimed to go beyond presenting information and, instead, craft a new, imaginative depiction of events. In other words, these historians relied on semantic and aesthetic tools, especially poetry, to create new meanings when depicting social reality. In Mamluk historiography, poetry was not just decorative; it actively shaped historical narratives and further immortalized events.

Keywords: Poetry, Historiography, Historical Narrative, Mamluk, Egypt, Qaraṭāy, al-Yūsufī, Ibn al-Dawādārī, Ibn Iyās, Ibn Zunbul.

[1] مرشد تربويّ للغة العربيّة منطقة الجنوب ومحاضر.

الملخّص:

يعدّ هذا البحث[2] استكمالًا لدراسات سابقة تناولت الكتابات التّاريخيّة في الفترة المملوكيّة (1250–1517)، وقد أظهرت استخدام المؤرّخين للعناصر الأدبيّة والسّرديّة، وادّعت أنّ هذه الظّاهرة أكثر وضوحًا عند المؤرّخين غير العلماء، وبخاصّة العسكريّين منهم، والّذين كانوا في الغالب مصريّين، إلّا أنّ الدّراسات السّابقة لم تلتفت كثيرًا إلى الشّعر، ودره في السّرد التّاريخيّ، ولم تقارن بين السيمات والأساليب الأدبيّة الموجودة في أشعارهم. فهذه الدّراسة تجري مقارنة دقيقة للاستخدام الأدبيّ للشّعر، عند مجموعة من المؤرّخين الّذين عاشوا في الفترة المملوكيّة في مصر، ولهم خلفيّة أدبيّة، وتعالج النّصّ التّاريخيّ على اعتباره نصًّا أدبيًّا، متجاوزة الادّعاء بأنّه مصدر للمعلومات التّاريخيّة للباحثين في هذا المجال، وعلى الرّغم أنّه لا يمكن تجاهل هذه الحقيقة، إلّا أنّ الدّراسة تفترض أنّ الكتّاب تجاوزها؛ من أجل رسم صورة إبداعيّة جديدة تُعيد تشكيل الأحداث، وقد اعتمدوا على أدوات فنّيّة وخياليّة أبرزها الشّعر؛ لإعطاء معنى جديد تمّ تشكيله من واقعهم الاجتماعيّ، فالشّعر في الكتابات التّاريخيّة ليس لمجرّد الزّينة، بل كان له دور فعّال في البناء السّرديّ، وتخليد الأحداث، والقيم الجماليّة الخالصة هي الدّافع وراء إدراج هذا الكمّ الهائل من القصائد في الكتب التّاريخيّة.

الكلمات المفتاحيّة: الشّعر، الكتابات التّاريخيّة، السّرد، قرطاي، الدّواداريّ، اليوسفيّ، ابن إياس، ابن زنبل.

[2] ينتمي هذا البحث إلى جامعة بار إيلان ضمن استكمال الكاتب لدراسة اللقب الثالث فيها.

1. الكتابات التّاريخيّة المملوكيّة

شهدت فترة المماليك زيادة كبيرة في الكتابات التّاريخيّة، كما أنّه ظهر مجموعة كبيرة من المؤرّخين العظماء، الّذين تركوا أثرًا بارزًا في التّأريخ الإسلاميّ، فكانت فترة إنتاجيّة أدبيّة غنيّة ومتنوّعة، مقارنة بالفترات السّابقة،[3] ففي المرحلة الممتدّة بين نهاية القرن الثّاني عشر وبداية القرن السّادس عشر، كان هناك حوالي مئة وخمسين مؤلّفًا في التّاريخ باللّغة العربيّة، لم تتوزّع هذه المؤلّفات بالتّساوي على مدى هذه القرون الثّلاثة الطّويلة، فشهد القرن الخامس عشر نشاطًا كبيرًا في إنتاج كتب التّاريخ، وقد قدّموا ثلثيّ الإنتاج التّاريخيّ لتلك الفترة في هذا القرن،[4] ومن أسباب هذه الزّيادة الكبيرة في أعداد الكتابات التّاريخيّة في هذه الفترة؛ أنّ المؤرّخين المسلمين أرادوا من خلال كتاباتهم الدّفاع عن الأمّة الإسلاميّة من أخطار الانقسام والاندثار، كما أنّهم عمدوا لإظهار تصوّرهم للعالم الإسلاميّ في العصور الأولى، ومقارنته بواقعهم،[5] ورغبة الولاة في معرفة أخبار الأمم التي سبقتهم، والحرص على توثيق أعمالهم وبطولاتهم.[6]

وقد استخدموا بعض الأحداث لانتقاد الأخطاء الاجتماعيّة، وإظهار تصوّراتهم حول ما اعتبروه مجتمعًا مثاليًّا،[7] فالقيم الأخلاقيّة عادة تسيطر على التّكوين التّاريخيّ، فتبدو

---

[3] شاكر 1990، ج3، 202؛ Frenkel 2018, 9.

[4] Van Steenbergen 2021, 4-5. وقد ظهر مجموعة من المؤرّخين الكبار من أمثال: ابن حجر (1372-1449)، *وكتابه الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة*، والعينيّ (1361–1451)، انظر: *عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان*، *والسّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد "شيخ المحموديّ"*، والمقريزيّ (1364 - 1442) انظر: *إغاثة الأُمّة بكشف الغمّة*، *والسّلوك لمعرفة دول الملوك*، وابن تغري بردي (1411–1470)، انظر: *النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، *والمنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي*، *وحوادث الدّهور في مدى الأيّام والشّهور*، والسّخاوي (1427-1497)، انظر: *الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع*، وقد تركوا بصماتهم على الأجيال اللّاحقة من المؤرّخين.

[5] شاكر 1990، ج.3، 202-201.

[6] إسماعيل 2013، 2.

[7] Van Den Bossche 2018, 355

واضحة وجليّة في الكتابات التّاريخيّة في عصر ما قبل الحداثة، حيث كانت الكتابة التّاريخيّة الرّسميّة، تميل إلى أن تكون تعليميّة بشكل خاصّ في القصد والوظيفة.[8]

وزاد الاهتمام بأوضاع النّاس وحالهم في الفترة المملوكيّة، ووصف أحوالهم المعيشيّة، وظهر ذلك جليّا عند المقريزي (1364-1442) وغيره من المؤرّخين المماليك، ويعلّل الباحث والمؤرّخ الخالديّ بروز هذه الظّاهرة في العصر المملوكيّ إلى ما تعرّضت له البلاد من حروب ماحقة وكوارث وأوضاع صعبة، جعلت من الصّعب على المؤرّخ أن يمرّ عليها دون ذكرها،[9] فساعدت القرارات التّأليفيّة للمؤرّخين الفرديّين في دعم كلّ من الأجندات الجماعيّة والشّخصيّة لهم، فهم مشاركون فعّالون لواقعهم السّياسيّ والاجتماعيّ،[10] ففي الفترة المملوكيّة أصبح صوت المؤرّخين أكثر تميّزًا وأقلّ خجلًا، وحضور المؤلّف واضحًا، وظهر ذلك في الزّيادة في استخدام ضمير "أنا" في النّصوص التّاريخيّة، وإدخال عناصر السّيرة الذّاتيّة في النّصوص، وبلغ هذا الأمر ذروته في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السّادس عشر، حتّى إنّ الأشخاص الّذين كتبوا التّاريخ أصبحوا جزءًا منه.[11]

2. الأدب يتغلغل في التّاريخ المملوكيّ

الظّاهرة اللّافتة للنّظر في الكتابات التّاريخيّة في الفترة المملوكيّة، هي الزّيادة الكميّة في استخدام العناصر الأدبيّة، كالحكايات الشّعبيّة، والعناصر الغرائبيّة، والزّخارف الشّعبيّة، والخطاب المباشر، والشّعر، وكذلك ابتكارهم المصادر الشّفويّة، ممّا يضّطرهم أحيانًا لحشو حوارات طويلة في أفواه الشّخصيّات،[12] فقد احتوت الكتابات التّاريخيّة في تلك الفترة

8 Waldman 1980, 9.

9 الخالديّ 2021، 55.

10 Olsen 2021, 320-321.

11 Hirschler 2013, 167; Frenkel 2018, 13-18; Onimus 2021, 349; Seidensticker 2007, 121-135.

12 Haarmann 1969, 83-159; Haarmann 1971, 46-60.

العشرات من الحكايات حول التّنبّؤات المستقبليّة، فكتاباتهم التّاريخيّة تحمل رسائل سياسيّة وتعليميّة وأخلاقيّة، وليست مجرّد وصف لأعمال الماضي.[13]

وقلّد المؤرّخون المماليك أسلافهم في تواصل دون انقطاع، في ترتيب الأحداث في النّظام السّنويّ (الحوليّ)، مع محاولات لا تخلو من التّجديد والابتكارات، فنظّم بعضهم الأحداث في وحدات أصغر متمثّلة في الأيّام والشّهور، ومنهم من رتّبها في وحدات أكبر كالعقود،[14] لكن منذ القرن الخامس عشر بدأ تغيّر تدريجيّ في أسلوب كتابة التّاريخ، حيث بدأت الكتابات التّاريخيّة في التّخلّي عن تنظيم النّصوص على أساس وحدات منفصلة، لإعطاء رواية متماسكة، مع بقاء النّظام الزّمنيّ الصّارم الّذي ساد في هذه الأعمال، والّذي قلّص إمكانيّات صياغة سرد مستمرّ.[15]

والمؤرّخون المسلمون لم يسجّلوا فقط ما حدث، بل استخدموا تقنيات متعدّدة لصنع معنى سرديّ جديد؛ ليعبّر عن تصوّراتهم للمجتمع المثاليّ، فالأحداث التّاريخيّة والرّوايات السّرديّة تشكّل الذّاكرة الجماعيّة للنّاس، وهي تعبّر عن تاريخ الشّعوب وهويّتهم، وتساهم في بناء النّظام الاجتماعيّ ومكانتهم فيه،[16] وقد استخدموا تقنيات سرديّة متنوّعة لزيادة الثّقة بكتاباتهم، وجعلها ترتدي ثوب الحقيقة، حتى يدرك الجمهور أنّ الأحدث التي تمّ الإبلاغ عنها قد حدثت بالفعل.[17]

ومن أهمّ التقنيات التي استخدمها المؤرّخون المسلمون الشّعر، والشّعر كما يرى الباحث والمؤرّخ بوعز شوشان (Boaz Shoshan) لعب دورًا مركزيًّا في بناء الأحداث وتخليدها في الكتابات التّاريخيّة، لكنّه لم يتوسّع في دراسته؛ لأنّه رآه خارج نطاق اختصاصه،[18] أمّا

13 Mazor 2018, 83-101; Van Den Bossche 2018, 353-369.

14 Haarmann 1071, 50.

15 Hirschler 2012a, 283.

16 Van Den Bossche 2018, 353-354, 369; Conermann 2008, Introduction.

17 Frenkel 2018, 28.

18 Shoshan 2004, 83.

الباحث جيو (Li Guo) فقد اهتمّ كثيرًا في الشّعر عند المؤرّخين في الفترة المملوكيّة، وناقش سبب اهتمامهم بالشّعر، وتساءل إذا كان ذلك لغاية نقل التّقارير، والمعلومات التّاريخيّة، وخلص إلى أنّ القيم الفنّيّة والجماليّة هي السّبب في الاستخدام الكبير للشّعر في كتاباتهم.[19]

2.1 الشّعر في الكتابات التّاريخيّة المملوكيّة

إنّ دور الشّعر كوسيلة للتّواصل، تغيّر كثيرًا عمّا كان عليه في العصر العبّاسيّ، وفقد بلاط السّلطان دوره كمركز أدبيّ تُقام به النّدوات الأدبيّة، وتخرج منه القصائد العظام، فاتّجه الشّعر في العصر المملوكيّ في كثير من المواضيع نحو الطبقات الحضريّة والبرجوازيّة، والّذين شاركوا في إنتاج واستهلاك الأدب، فكتب كثير من علماء الدّين والمؤرّخين قصائد ورسائل أدبيّة، وحرصوا على تضمينها في كتبهم، فهي دلالة على تمكّنهم من اللّغة، وقدرتهم الأدبيّة، التي تحفظ مكانتهم في العالم الأكاديميّ والعلميّ.[20]

وكان للشّعر دور مهمّ في توثيق الأحداث، فالشّعر استخدمه كثير من الشّعراء كأداة لوصف الفتوحات والأشخاص العظماء، فبما يحتويه من خصائص أسلوبيّة وإيقاعيّة، جعلته أكثر قربًا من القرّاء، ووسيلة للتّعبير عن الذّكريات والمشاعر، وتصوير الحياة اليوميّة، فالعلاقة بين التّاريخ والشّعر علاقة تكامليّة، فالتّاريخ يقدّم مادّة غنيّة للشّاعر، الّذي بقلمه الأدبيّ ينقل تلك الأحداث والشّخصيّات، ويجعلها أكثر تأثيرًا ورسوخًا في الذّاكرة الجمعيّة للمجتمع الإسلاميّ.[21]

وقد أولى الباحث والمؤرّخ هارمان (Haarmann) أهميّة كبيرة للمؤرّخين المصريّين المرتبطين بالمؤسّسة العسكريّة، حيث رأى أنّ مؤلّفاتهم كُتبت بدرجة عالية من الأدب، فهي

---

[19] المؤرّخ اليونيني (1242- 1326)، احتوى كتابه ذيل *مرآة الزّمان* على أكثر من ألفين ومئتين قصيدة، انظر: اليونينيّ، ذيل مرآة الزّمان؛ 96 -1 ,Guo 1998.

[20] Bauer 2013, 23- 27.

[21] أبو حسين 2023، 692.

تحتوي على العديد من العناصر الأدبيّة،[22] وقد نشط هؤلاء المؤرّخين في النّصف الأوّل من القرن الرّابع عشر وكان أبرزهم *قرطاي* (توفي بعد 1309) [23]، *والدّواداريّ* (غير معروف تاريخ ميلاده أو وفاته)[24] *واليوسفيّ* (1277-1358)[(25)] ويضاف إليهم *ابن إياس* (1448-بعد 1522)[(26)]

[22] Haarmann 1995, 133-135.

[23] هو *قرطاي العزّي الخازنداريّ* المتوفّى بعد سنة 1309، وكان مملوكًا (عبد عسكريّ)، وهو من المؤرّخين المصريّين الّذين ينتمون إلى المؤسّسة العسكريّة، وقد ألّف في علوم متنوّعة باللّغة العربيّة في الفقه والأدب والطبّ والجغرافيا والهندسة والفروسيّة وتعبئة الجيوش والتّاريخ. انظر: *تاريخ مجموع النوادر* "ب"، 7.

[24] هو أبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد، ولد ونشأ في القاهرة، وغير معروف سنة ميلاده أو وفاته، وقد عُرف أبوه بالدّواداريّ انتسابًا لخدمة بلبان الروميّ الدّوادار، وقد عكف على كتابة الأدب والتّصنيف في التّاريخ، ويعدّ كتابه *كنز الدّرر وجامع الغرر* المكوّن من تسعة أجزاء في سبعة وعشرين مجلّدًا من أشهر مؤلّفاته، والّذي جمعه وكتبه في عهد السّلطان النّاصر محمّد بن قلاوون (1293-1341)، وأرّخ في الجزء الثّامن والتّاسع له، وذكر أحداثًا شارك بها ونقلها لمن بعده، وقد وضعه في خزانة السّلطان، بعد أن أجزل عليه بالمديح والثّناء بين ثنايا الكتاب. انظر: *كنز الدّرر وجامع الغرر*، ج. 8-9؛ *الأعلام*، ج.2، 656.

[25] هو موسى بن محمّد بن يحيى اليوسفيّ المصريّ، ولد في مدينة القاهرة نهاية حكم السّلطان بيبرس سنة (1277)، وتوفي فيها سنة (1358)، وكان *اليوسفيّ* مقدّما في الجيش المملوكيّ، وقد شارك في الحملة المملوكيّة المتوجّهة إلى اليمن، وكانت تربطه علاقات وطيدة مع كثير من الأمراء المماليك ورجال العلم والأدب في عصره، وقد كتب في التّاريخ، وكان أديبًا اطلع على الأدب ونظم الشّعر، ويرى الصّفديّ في ترجمته *لليوسفيّ*، إنّ عدم انشغال *اليوسفيّ* في إتقان اللّغة العربيّة جعله يأتي بالأعاجيب، وقد ألّف في التّاريخ كتاب: *نزهة الناظر في سيرة الملك النّاصر*، وهو في هذا الكتاب يؤرّخ لأحداث عايشها، وكان أحيانًا له دور بارز فيها. انظر: اليوسفيّ، *نزهة النّاظر*، 41-55؛ *أعيان العصر*، 215-217.

[26] هو ابن إياس أبو البركات محمّد بن أحمد شهاب الدّين النّاصريّ الجركسيّ الحنفيّ، ولد وعاش في القاهرة سنة (1448)، وكان *ابن إياس* من المؤرّخين الّذين شهدوا زوال دولة المماليك، وأرّخوا لهذه الفترة المهمّة، وكان له باع طويل في الأدب، فقد احتوى تاريخه *بدائع الزّهور في وقائع الدّهور* على العشرات من الأبيات الشّعريّة من تأليفه، وغيرها من الأبيات والقصائد لشعراء آخرين تضمّنها كتابه، وكان له إقطاع يدرّ عليه مالًا ممّا أتاح له التّفرّغ للكتابة. انظر: ابن إياس 1984، *بدائع الزّهور في وقائع الدّهور*؛ عبد الغني، 2000، 123.

وابن زنبل (1500- بعد 1553)،[27] اللّذان نشطا في نهاية العصر المملوكيّ (نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السّادس عشر).

ويمكن تقسيم الشّعر، الّذي جاء في كتب المؤرّخين بناء على دوره في السّرد إلى ثلاثة أقسام رئيسة، القسم الأوّل: ما اختاره المؤرّخ، معتمدًا على ذوقه الفنّيّ من أعمال الأدباء والعلماء، والقسم الثاني: ما كان من تأليف المؤرّخ نفسه، سواء صرّح بذلك، أو ذكره على ألسن الشّخصيّات، والقسم الأخير: الّذي كان لتوثيق أحداث، أو التّعليق عليها من شعر شعراء معاصرين: قصائد، ومقطوعات، ونتف (أي بيتين اثنين)، وأبيات مفردة.

2.1.1 المختارات الشّعريّة

أظهر المؤرّخون حرصًا في اختيار الأبيات، التي رأوا أنّها من أجمل شعر المتوفّى، وأحيانًا يصرّحون بأنّ هذه الأبيات من أفضل ما قال،[28] وكانوا يذكرون الغرض الّذي قيلت فيه، والبحر الّذي جاءت عليه.

وقد نوّع *قرطاي* في الأغراض الشّعرية، فاختار أشعارًا في الغزل والحكمة والرّثاء والمدح، وكان يعرض القصائد الطّوال التي تمتدّ لعشرات الأبيات، ويلحقها بتعليقاته النّقديّة، وأحيانًا

[27] هو *أحمد بن علي بن نور الدّين المحلّيّ الشّافعيّ*، المعروف *بابن زنبل الرمّال*، والرمّال نسبة إلى وظيفته، الّتي عُرف بها وهي ضرب الرّمل، فقد عمل منجّمًا للأمراء المماليك، وقد توفي بعد عام 1553. انظر: Eyyid 1988, 474؛ ورجّح الباحثون أنّه ولد سنة 1500، وشهد دخول السّلطان العثمانيّ سليم الأوّل القاهرة سنة 1517، ألا إنّ المرحلة الفاصلة التي عاشها *ابن زنبل*، وبما حملته من أحداث عظيمة، دفعته لتأليف كتاب يصف تلك الأحداث ويؤرّخ لها، بعنوان: *وقعة الغوري والسّلطان سليم وما جرى بينهما*، ولكن وُضع له عنوان آخر على طبعة عام 1998 وهو *آخرة المماليك*، والّذي يعالج فترة زمنيّة قصيرة تمتدّ بين هزيمة الغوريّ في سوريا عام 1516، وخمس سنوات بعد غزو العثمانيين. انظر: *آخرة المماليك* 1998 الشّوربجيّ 2020، 8-9؛ Shoshan 2018, 156.

[28] *تاريخ مجموع النّوادر* " أ"، 15؛ كنز الدّرر، 279؛ 315؛ *بدائع الزّهور*، 96-101.

يسبقها بتلك التّعليقات، الّتي تظهر سبب اختياره لهذه الأبيات،[29] وكان ذكر الشّعر في الوفيّات، وسيلة أراد من خلالها المؤرّخ أن يوثّق للمتوفّى، ويُعلي ذكره، ويُخلّد صاحبه، فالشّعر ألصق بالذّاكرة من غيره.

أمّا *الدّواداريّ* الّذي غلب المدح على باقي الأغراض الشّعريّة في كتابه، فاستخدم أسلوبًا مغايرًا، حيث كان يذكر اسم البحر، وبعدها يذكر أبياتًا اختارها للأديب، ثمّ ينتقل لبحر آخر،[30] ولم يسرد القصائد كاملة معلّلًا ذلك: أنّ تاريخه تاريخ مختصر، يتجنّب فيه الإطناب والحشو الزّائد،[31] ولم يكتف بالشّعر الّذي ألحقه بالمتوفّين، بل خصّص جزءًا في آخر كتابه؛ ليعطي نماذجًا من الأدب والشّعر في عصره،[32] حيث قال:

"هؤلاء الموالي المذكورون في أوّل الأسماء، أئمة فضلاء علماء، يجلوا أن يطلق عليهم اسم الشّعراء، لكون محلهم يعلو على الشعراء، وقد أدركهم العبد وفاز بمشاهدتهم، وجنا هذه الثمار الجنية من فكاهتهم، فخصصت هذا الجزء المبارك في ذكرهم".[33]

أراد *الدّواداريّ* في هذا الجزء من الكتاب أن يؤرّخ للشّعر والشّعراء، وهذا لم يجعله محايدًا، فقد أظهر مقدرته على نقد الشّعر من خلال ملاحظاته حول الشّاعر وشعره، فكان يختار الأبيات والمقطوعات بناء على ذوقه، ويُعطي الأحكام عليها، *" قلت: وهذا الشّعر جميعه مما يكون في طبقة المقبول، ولعلّ فيه أبيات تحتمل أن تكون في طبقة المطرب، وليس فيه شيء يصل إلى طبقة الرقص"*،[34] فكان يبدأ تعليقه بكلمة *"قلت"* وكأنّه يريد أن يؤكّد أنّ

---

[29] *تاريخ مجموع النّوادر" أ"*، 15؛ 105، 113-114، 142، 195، 199- 202؛ *بدائع الزّهور*، 26، 56، 70، 71، 73، 75، 76، 106، 107، 108، 132.

[30] *كنز الدّرر*، 37، 57-59، 181-182، 387-390.

[31] م. ن، 59.

[32] م. ن، 384- 400.

[33] م. ن، 384.

[34] م. ن، 388.

هذا الرّأي النّقديّ يُنسب إليه، وكان يصنّف الشّعر إلى طبقات: المقبول والمطرب والرّقص،[35] ويذكر مقطوعات على كلّ صنف، وفي مواضع أخرى يصنّف الشّعر حسب الغرض، ويظهر موطن الجمال في القصائد، وأحكامه على الشّعراء والأدباء في عصره، مع أسلوب المبالغة في الوصف والمدح، الّذي لم يفارقه في كلّ أجزاء كتابه.[36]

واليوسفيّ كان مقلًّا في نقل المقطوعات الشّعريّة المختارة، عند مقارنته *بقرطاي والدّواداريّ*، وكان وأسلوبه يتمثّل في اختيار أبيات محدّدة للأديب من قصائد معيّنة، ويكتفي بذكر قافية القصيدة، وبعدها يسرد الأبيات المنتقاة،[37] ويبدي رأيه في هذه الأبيات، مسلّطًا الضّوء على الصّور الفنيّة فيها، وحكمه النّهائيّ عليها.[38]

وقد قلّد *ابن إياس* من سبقوه من المؤرّخين في سرد الشّعر، وتشابه أسلوبه بأسلوب *قرطاي*، فقد نوّع في الأغراض الشّعريّة، بخاصّة في المدح والرّثاء والحكمة، وظهرت له العديد من الآراء النّقديّة حول القصائد التّي تضمّنها تاريخه، إلّا أنّه كان أكثر نظمًا للشّعر من *قرطاي والدّواداريّ واليوسفيّ*.

أمّا *ابن زنبل* فلم ينهج نهج من سبقه أو عاصره في سرد القصائد والمختارات الشّعريّة للمتوفّين أو غيرهم، حتّى يزيل الملل والإطالة على جمهوره، الّذي جاء يستمتع بسرده البطوليّ للتّاريخ، إلّا أنّ تاريخه قد عجّ بالمقطوعات الشّعريّة، فكثير من الحوادث والمعارك كان ينظمها

---

[35] المرقص ليس اختراعًا خالصًا ولا نظمًا محدثًا، لكنّه قريب من الإبداع لما فيه من حركة تُحرّك القلوب وتستميلها، مستندًا إلى الذّوق والحسّ. والمطرب هو ما لم يبلغ تمام الابتكار، إذ ينقصه العمق في الغوص إلى درجة الاختراع، لكنّه لا يخلو من لمحة تجديد وابتداع. والمقبول هو ما تميّز بعذوبة في اللّفظ وحسن في الأداء، دون أن يكون مبنيًا على غرض بلاغيّ كالتّشبيه أو التّمثيل، بل يُقبل لذاته لما فيه من طلاوة وجمال. انظر: ابن سعيد المغربيّ، *المرقصات والمطربات*، ج1، 46-49.

[36] م. ن، 37؛ 279؛ 385؛ 389؛ 391.

[37] *نزهة النّاظر*، 218-219.

[38] م. ن، 219-221؛ 236-237.

شعرًا من تأليفه، لذلك امتازت النّسخ الأصليّة من كتابه بالضّخامة؛[39] لكثرة الشّعر فيها، فقد استخدم الرّواة تقنية سرد الشّعر،[40] الّذي كان يُلحّن ويُغنّى مع أدوات العزف؛ لكي يطرب السّامعين ويشدّهم إلى الأحداث، وجلّ شعره في الملاحم والحماسة، وكان في الغالب على ألسن الشّخصيّات، ثمّ يعود بعد المقطوعة الشّعريّة لمتابعة سرد الأحداث بقول *"قال الرواي يا سادة"* مخاطبًا جمهوره.[41]

أظهر القسم السّابق أنّ هذه المجموعة من المؤرّخين، كانت لهم معرفة بالشّعر ونقده، وبدا ذلك واضحًا من خلال اختيارهم للقصائد والمقطوعات والأبيات الشّعرية المفردة، الّتي أكّدت على مقدرتهم على تذوّق الشّعر، كما أنّ آراءهم النّقديّة التي ظهرت في كتبهم، أظهرت معرفتهم بهذا الفنّ الأدبيّ وأساليبه، ولم يكتف المؤرّخون باختيار النّصوص والنّقد، بل كان لهم مساهماتهم المميّزة من خلال إضافة بعض الأبيات، والقصائد الكاملة من تأليفهم.

2.1.2 المؤرّخ الشّاعر

نقل المؤرّخون الأدباء ذوقهم الأدبيّ، ومقدرتهم الشّعريّة إلى كتب التّاريخ دون انقطاع، *فقرطاي* الّذي عاش فترة طويلة من حياته بعيدًا عن القاهرة، وقد اكتوى بنار الفراق، عندما سرد قصيدة للشّيخ تاج الدّين الصّرخديّ الدّمشقيّ، الّذي أُبعد أيضًا مجبرًا عن بلده دمشق، ليستقرّ به الحال في القاهرة، فيكتب قصيدة يعبّر فيها عن مشاعره، وشوقه إلى بلده دمشق، تهيّجت مشاعر *قرطاي*، فعارضه بقصيدة، يصف بها القاهرة، وتفوّقها عن باقي المدن.

قال الصّرخديّ:

سـلّم سـلمت على جيران جيرون يا صاح عن مستهام القلب محزون

[39] ولكن في النّسخ المطبوعة حُذف ذلك الشّعر، دون أن يؤثّر على سرد الأحداث، ولم يتبقّ في النّسخة موضوع البحث، إلا ثلاثة شواهد من الشّعر. انظر: *آخرة المماليك*، 65، 223، 236.

[40] الشّوربجيّ 2020، 71.

[41] م. ن، 60.

وخصّ جامعها عنّي فكم جمعت أكنافه الشمل بالأحباب عن حين
حيث البدور على تلك الغصون غدت تختال كالغيد في الأعطاف واللين[42]

قال *قرطاي*:

املا المسامع من مصر لتشفين واحيي فؤادي بذكراها لتحييني
وانقل أحاديثها عني وقل خبرًا مني ودع من درى جديا وزبدين
وقف بجامع طولون وسر سحرًا نحو المدينة لا نحو الميادين[43]

القصيدتان تتوافقان في الظّروف التّاريخيّة لنشأتهما، والدّوافع لكتابتهما، كما أنّهما تتطابقان في الموضوع، فكلاهما يصف المدينة، والمكان الّذي ينتمي إليه الشّاعر، فقصيدة الصّرخديّ تصف مدينة دمشق وأهلها، وقصيدة *قرطاي* تصف مدينة القاهرة وأهلها، والّتي أطلق عليها اسم مصر، وتتطابق القصيدتان بالقافية النّونيّة المكسورة، والبحر البسيط، وقد بدأ كلا الشّاعرين قصائدهما بمخاطبة الخليل المتخيّل؛ فهذا التّطابق في الموضوع والقافية والأسلوب، يجعلهما من ضمن شعر المعارضات الّذي كان رائجًا في العصر المملوكيّ،[44] وعند النّظرة الأوليّة لأبيات القصائد، يظهر أنّ البعد النّفسيّ والمكانيّ والزّمانيّ طغى على كلّ الأبيات.

فالبعد النّفسيّ ظهر واضحًا في القصيدتين، فالشّاعران يظهران اللّوعة والحزن والشّوق لبعدهما عن وطنهما، فالصّرخديّ يطلب من خليله (يا صاح) توصيل السّلام لدمشق وأهلها، ويعبّر عن حالته النّفسيّة الصّعبة؛ لبعده عن وطنه، فقلبه مستهام ومحزون. ويخاطب *قرطاي* خليله المتخيّل، ويطلب منه أن يملأ المسامع في ذكر القاهرة (مصر)، فهذا الذّكر يجعل قلبه حيّا، وبعدها يطلب من خليله أن ينقل أخبارها إليه، وأن لا يلتفت إلى من ذكر

[42] تاريخ مجموع النّوادر " أ"، 199-201.

[43] م. ن، 201-202.

[44] سنجق 2012، 1137-1139.

الشّام، ويقصد بذلك الصّرخديّ، وكأنّه يعلن في البيت الثّاني أنّ الهدف من القصيدة معارضة الصّرخديّ.

يظهر البعد المكانيّ عند الشّاعرين، من خلال ذكر الأماكن الّتي يحنّون إليها، فيوجّه الصّرخديّ سلامه إلى جامع دمشق، ويصف ساحاته وبساتينه، وفي باقي الأبيات يصف حيّ النيربين وجرمان وجسرين وكلّها قرى حول دمشق، ومسجد خاتون والوادي، ويصف كلّ مكان بأجمل الصّفات، ويظهر شوقه للمكان وحنينه إليه. قال الصّرخديّ:

واقرى السلام على الوادي وسرحته — وحيّ بأناسه عنّي لتحيّيني
وقِل بمسجد خاتون فإنّ به — وبالمنيبع أضحى القلب في هون
وأنت يا برق حيّ النيربين بها — واسقي مراتعها سحًّا كسحّون
وإن أتيت الحمى وهنًا فحيّ به — حيًّا أقاموا بجرمانا وجسرين[45]

وقابله *قرطاي* بأماكن في القاهرة، فذكر في البيت الثّالث جامع طولون واستفاض في وصف الأشجار والرّبيع والزّهر والبساتين والطّرق، ويصف ماء النّيل العذب، ولباس أهلها وجيشها. قال *قرطاي*:

وقف بجامع طولون وسر سحرًا — نحو المدينة لا نحو الميادين
من كلّ هيفاء تزري بالغزال ضحى — وبالبدور وبالأغصان في اللين
والفرو والصوف والقطن الغليظ ولـ — ـبس البشت عندهم لبس المجانين
وإن تصف فهوى مصر ورقّته — وماؤها الشهد فاملا كي تحيّيني
وللجيوش بمصر بركة عجب فيها — سلبت فلا عقلي ولا ديني[46]

وكان حريصًا على اختيار الألفاظ الأنيقة، والتشابيه الساحرة، الّتي تناسب وصف مدينته الجميلة، وذكر العديد من الأماكن في القاهرة، مثل دير الطّين وجزر مصر وروضتها وبولاق

[45] تاريخ مجموع النّوادر " أ"، 200.

[46] م. ن، ص201-202.

وجزيرة الفيل وشبرا والجنينة العظمى وباب النّصر، وغيرها من الأماكن، الّتي أظهر تعلّقه وشوقه لها، قال *قرطاي*:

وإن عبرت بدير الطين، قف لترى — حسن الشماميس ما بين الرهابين
وجز بمصر وروضتها وجيزتها — وحسن مقياسها ما بين بحرين
ورمل بولاق إن عاينته سحرًا — جزيرة الفيل في البستان تخبين
وتمّ شربك في شبرا وقم غططًا — للمنيّة الصبح وانزل كي تمنيني
وفي الجنينة العظمى ترى — من أعين الترك إن عاينت تسبيني
وإن أتيت لباب النصر قف نفسًا — بين الخوانك واجلس بين قصرين[47]

وفي البعد الزّمانيّ قارن الشّاعران بين أحوالهما السّعيدة في الماضي، وما آلت إليهم أحوالهما في الحاضر، حيث كان الصّرخديّ في الماضي يجتمع مع الأحبّة بين أحضان الطّبيعة السّاحرة في جامع دمشق، ويتذكّر أهل دمشق، وطيب الحياة بها على مدار أربعة فصول، فلكلّ فصل ميّزاته وسحره، قال *الصّرخديّ*:

ما أطيب العيش أيّام الربيع بها — لنا وأحسن أيّامًا بتشرين
تروق في الصيف لي والحرّ محتدم — ولست أكرهها وقت الكوانين[48]

و*قرطاي* لم يفتأ يذكر ذكرياته في القاهرة، وأماكن اللّهو والحياة الرّغيدة بها. قال *قرطاي*:

ونحن في طيب عيش رزقنا غدق — يومًا بيوم لنا آت يكفّيني[49]

في القسم الأخير من قصيدة الصّرخديّ، يستخدم أسلوب المقارنة بين الأماكن في دمشق والقاهرة، ويقارن بين الحياة في كلا المدينتين، وأظهر عدم حيادتيّه من البيت العشرين قبل أن يبدأ المقارنة، حيث أعلن أنّ رائحة دمشق العطرة أفضل عنده من كلّ ملك مصر، وبعدها يقارن بين بعض الأماكن في القاهرة ودمشق، فكلّ شيء في دمشق يروق له، ممّا

[47] م. ن، 202.
[48] م. ن، 200.
[49] م. ن، 202.

جعله يقرّر في البيتين الأخيرين العودة إلى دمشق، ويكتفي بالرّزق القليل بها، ومستعدّ أن يبقى بها حتّى لو فقد عمله:

سأرحل العيس عنها وهي صاغرة — إلى الشآم وأدنى الرزق يكفيني
أسعى له فيعنّيني تطلّبه — ولو قعدت أتاني لم يُعنّيني[50]

و*قرطاي* الّذي قرّر أيضا الرّحيل والعودة إلى القاهرة، يعارض الصّرخديّ، فيظهر أنّ الرّزق في القاهرة وفير، وأنّه لا يخاف عليه، وكما أنّه لا يوجد هواء ملوّث في القاهرة، كما ادّعى الصّرخديّ، وسيحرص أن يسكن عند باب النّصر وسط المدينة:

سأرحل العيس من أرض الشآم إلى — مصر ودع من لحاني أن يخلّيني
رزق كثير ولا خوف ولا تتر — ولا جفول بنار أو دخاخين
جعلت سكناي بباب النّصر مجتهدًا — وسط المدينة والأسوار تحويني[51]

فتميّزت قصيدة *قرطاي*، بجزالة الألفاظ، وانتظام الوزن، وظهور بعض عناصر المقدمة الطّلليّة كمخاطبة الخليل المتخيّل، وإظهار الحزن والشّوق للمكان، وكثرة ذكر الأماكن.[52] وكذلك موضوع القصيدة، ومعارضته لقصيدة أخرى، تقنيات مستمدّة من الشّعر العبّاسيّ، الّذي يُعدّ نموذجًا يتبعه الشّعراء المقلّدون في العصر المملوكيّ.[53]

وكان *ابن إياس* يكتب المقطوعات الشّعريّة والقصائد معلّقًا على الأحداث التّاريخيّة، ويبدأ الأبيات الشّعرية بعبارة *"قلت في المعنى"* [54] وأحيانًا يضع صيغة المبني للمجهول *"قيل في المعنى"*[55] فابن إياس بهذه العبارات يهيّئ القارئ أنّه يريد إعادة كتابة الحدث التّاريخيّ شعرًا.

---

[50] م. ن، 201.

[51] م. ن، 202.

[52] محمّد 2018، 170-075.

[53] علي 2018، 99-103.

[54] م. ن، 18، 26، 70، 71، 223، 249.

[55] م. ن، 17، 56، 73، 75، 76، 88، 108، 132، 147.

"وقد قلت في المعنى:

تـأمّـلـوا مـا جـرى بـمصـر مـن حـادث عـمّ الـعـبـاد
فـمـا رعـوا الـتـرك في دمـاء فـكـيـف يـرعـوا دمًا لـلـكـلاب" [56]

في هذه الأبيات الّتي يصف بها *ابن إياس* حادثة قتل الكلاب، الّتي قام بها العثمانيّون، الّذين كانوا يعتقدون أنّ قتلها يقلّل من انتشار الطّاعون، وأظهر عدم رضاه عن فعل الأتراك، وكرهه لهم، فهو لا يستهجن هذا الفعل عنهم، فهم فعلوا أكثر من ذلك، فقد قتلوا النّاس العوام الأبرياء، واستخدم *ابن إياس* لغة قريبة من اللّغة المحكيّة، ومعان مستمدّة من الحياة، كالرّحمة بالإنسان أولى من الرّحمة بالحيوان، وفي هذه الأبيات خطاب مباشر لجمهور القرّاء، بقوله: *"تأمّلوا"*.

وفي مقتل الغوريّ قال: *"وقد قلت في المعنى:*

اعـجـبـوا لـلأشـرف الـغـوري الـذي مـذ تـزايـد ظـلـمـه في الـقـاهـرة
زال عـنـه مـلـكـه في سـاعـة خسـر الـدنـيـا أذًا والآخـرة [57]

في النّتفة السّابقة يطلب *ابن إياس* من جمهوره أخذ العِظة من موت الغوريّ بقوله *"اعجبوا"*، حيث يرى أنّ سبب مقتله هو ظلمه وطغيانه، متأثّرًا بالآية القرآنيّة *" خسر الدنيا والآخرة"*؛ [58] ليحدث أكبر العِظة في نفس المتلقّي، وهذه الآية تُقال فيمن ابتعد عن طاعة الله، فحلّت عليه المصائب حتى مات، فخسر بذلك دنياه وخرّب آخرته،[59] والغوريّ خسر الدّنيا والآخرة لظلمه، وفي هذه الأبيات يظهر *ابن إياس* عدم محبّته للسّلطان الغوريّ، ويرى أنّه كان سلطانًا ظالمًا جائرًا.

---

[56] م. ن، 349.

[57] م. ن، 71.

[58] *القرآن الكريم*، سورة الحجّ، آية 11.

[59] تفسير القرآن العظيم، 1264؛ تفسير الجلالين، 435.

الشّعر الّذي كتبه *ابن إياس* يقع ضمن شعر المناسبات، ويتّصف باللّغة البسيطة، والصّور الفنيّة والتّشبيهات المستمدّة من الحياة اليوميّة، فلغته قريبة من اللّغة العامّيّة، وكأنّه أراد من هذه المقطوعات والقصائد، أن ترسم الواقع كما هو دون تكلّف، وتكون أكثر قربًا من الجمهور وروح العصر.

وقد اجتهد *ابن زنبل* على أن يضمّن تاريخه قصيدة طويلة، يعيد من خلالها سرد جميع الأحداث شعرًا على لسان شخصيّة البطل السّلطان طومان باي، آخر سلاطين المماليك:

دموع العين فاضت من مآقي وقلبي ذاب من كثر احتراقي
فلا ناري طفاها دمع عيني ولا دمعي يفيض من اختناق[60]

جاءت هذه القصيدة لتعبّر عن الخواطر النّفسيّة وما يعتلج نفسيّه السّلطان طومان باي من الهمّ والحزن، بطل هذه الاحداث، ففي أوّل خمسة أبيات، عبّر عن حالة الحزن واليأس والنّدم لتحوّل الزمّن، وشعوره أنّ دولته زالت، وبعدها يبدأ بسرد الأحداث منذ مقتل السّلطان قانصوة الغوريّ في مرج دابق إلى دخول العثمانيّين مصر، ويذكر أنّ سبب الهزيمة خيانة أحد أمراء المماليك الغزاليّ، حيث قال:

وسلطان الجميع سليم شاه عظيم الملتقى مر المذاق
وكان الماجد الغوري منا مليكا شبه بحر في اندفاق
وسلطانا لنا أضحى قتيلا طريحا والدم في الانهراق
وكائن الخائن الكلب الغزالي وخير بيك المبوطن في النفاق

في الأبيات السّابقة يصف *ابن زنبل* الخائن بالكلب، وهذه الصّورة تكرّرت في نثره، وفي الأبيات الّتي تليها تحدّث عن مكائد الغزاليّ، وتعاونه مع العدوّ، ويصف انتقال جيش سليم إلى مصر، والتحامه بالجيش المملوكيّ.[61]

[60] م. ن، 165.

[61] م. ن، 166.

ويصف البطولات الخارقة للسّلطان طومان باي حتّى إنّ السّلطان العثمانيّ سليم كان يتهرّب من لقائه، ثمّ يعود ليخبر عن خيانة قومه، وأنّهم أرادوا تسليمه لعدوّه،[62] ولكنّه يبقى متحدّيًا لكلّ الظّروف القاهرة، ويواجه عدوّه ببسالة منقطعة النّظير، ويستحضر أبطالًا من السّير الشّعبيّة كالزّير سالم وعنترة بن شدّاد:

وعنتر غاب عن عبلة سنينا بقيد الأسر في أرض العراق
ونام الزير دهرًا عن كليب وبعد ستين جاء لما يلاقي[63]

ويعود ليشارك جمهوره أحزانه وخلجاته الدّاخلية، وفي آخر بيت في القصيدة يظهر الهدف من كتابة هذه القصيدة الطّويلة، بقوله:

وعلقنا على الأهرام شعرًا كنظم الدر في حسن النساق

فأبيات قصيدته متناسقة في جمالها كحبّات الدّر (اللؤلؤ) الّتي نُظِمَت في عقد بانسجام وتناسق بديع، فهي كشعر المعلّقات في العصر الجاهليّ، الّذي قيل عُلّق على أستار الكعبة لعظمته ومكانته، وليبقى خالدًا،[64] فعُلّقت هذه القصيدة على الأهرامات لتبقي خالدة في الذّاكرة، كما بقيت الأهرامات خالدة على مرّ الأزمان، وبعد إلقائها على الجمهور، عاد *ابن زنبل* إلى سياق الأحداث بعبارة *"قال الراوي"*،[65] *فابن زنبل* أراد أن يكتب تاريخه شعرًا مغنّى؛ ليطرب به السّامعين، ويجعله خالدًا يتناقله الأجيال، فالشّعر أسهل للحفظ.

ونسب *ابن زنبل* هذه القصيدة للسّلطان طومان باي، حيث كان ينشد القصيدة، والأمير شار بك يكتب على الأهرامات، والأمير قيت رحبي يستمع، فكانت أحسن من المعلّقات كما يدّعي *ابن زنبل*، وقد كتبها ليذكر ما جرى له من أوّل الأحداث،[66] لكن التّشابه الكبير بين

[62] م. ن، 165.

[63] م. ن، 168.

[64] الزوّزنيّ 1992، 7.

[65] *آخرة المماليك*، 168.

[66] م. ن، 165.

لغة وأسلوب الكتاب والقصيدة، جعل من الصّعب التّصديق بنسبة القصيدة للسّلطان طومان باي.

فالقصيدة الّتي كتبها *ابن زنبل* قريبة من نثره، فلغتها بسيطة، وهي تبتعد عن النّموذج المثاليّ من الشّعر العبّاسيّ، الّذي قلّده الشّعراء في العصر المملوكيّ،[67] ولكنّها جاءت معبّرة عن شخصيّة البطل، وجعلت السّامع يتفاعل معها، ولغتها البسيطة قريبة من لغة الجمهور العامّي، ممّا جعلها لغة حيّة، وهي تُحاكي الشّعر الّذي جاء في السّير الشّعبيّة، وأدّت نفس الدّور السّرديّ.

فجلّ الشّعر في السّير الشّعبيّة، كان في الحماسة والملاحم، ولغته عاميّة، وكانت في كثير من الأحيان تكتب الملاحم والمعارك في السّير الشّعبيّة شعرًا، يتغنّى به النّاس في مجالسهم، وتتناقله الأجيال،[68] فالسّير الشّعبيّة تحتوي على الكثير من الشّعر، الّذي كان على ألسن الأبطال، ليلخّص مواقفهم، ويعبّر عن خلجاتهم، وهو أكثر دلالة وأشدّ أثرًا في نفس المتلقّي من النّثر، وله وظيفة تزينيّة وتكميليّة للسّرد، فهو لا يلعب دورًا أساسيّا في السّرد،[69] وحذفه لا يغيّر كثيرًا في مجرى الأحداث، و لكن له وظيفة جماليّة تُحدث أثرًا في نفس المتلقّي لإيجاد التّسلية والمرح، وتجعل من الأحداث البطوليّة قصيدة مغنّاة يحفظها ويتناقلها العوام فيما بينهم، فقد تنبّه المؤرّخون في وقت مبكّر إلى أهميّة الشّعر في نقل وحفظ الأحداث العظام. [70]

2.2.3 الشّعر يكتب التّاريخ

لقد رأى الفيلسوف أرسطو أنّ الفرق بين كتابة الشّعر، وكتابة التّاريخ، أنّ التّاريخ يحاول أن ينقل الوقائع كما هي، بينما الشّعر يظهر الارتباط بين الأفعال، فالشّعر له مقدرة على وصف المشاعر الدّاخليّة للإنسان وارتباطه بالأحداث، فكلاهما ينقل الأحداث إمّا نثرًا أو شعرًا، لكن

[67] علي 2018، 99-101.

[68] بوسكاية 2020، 15.

[69] عبد الحافظ 2019، 67.

[70] Bauer 2005, 111-112.

ليس هدف الشّعر نقل الحقيقة، بل روايتها كما يمكن أن تكون في عين الشّاعر،[71] فالشّعر يمثّل مصدرًا منفردًا للمشاعر الوجدانيّة، وغير المحسوسة للتّاريخ الإنسانيّ، لا يشاركه به أيّ مصدر آخر من مصادر التّاريخ، فهو التّعبير الرّوحيّ لعصره، والشّاعر إن بدّل في بعض الحقائق التّاريخيّة إلّا أنّه يبقى مرتبطًا بالمفاهيم، والقيم الّتي تحكم عصره، والأحداث التّاريخيّة المهمّة تكون محفّزًا للشّاعر، وملهمة له ليرسمها شعرًا.[72]

نقل الشّعراء اليونانيّون القدامى العديد من المعارك من خلال مسرحيّاتهم وأشعارهم، وفي فترة الحروب الصّليبيّة على الشّرق، ظهر العديد من الشّعراء، يصفون تلك المعارك من كلا الجانبين (الشّرقيّ والغربيّ)، وكانت بعض القصائد تُعطي تصوّرًا واضحًا عن عدد الجيوش، وسير المعركة، وحتى الموسيقى المستخدمة في الحرب،[73] وفي الفترة الأيّوبيّة والمملوكيّة شهدت مصر والشّام أحداثًا كبيرة، هبّ الشّعراء لوصفها، والتّعبير عن مواقفهم منها،[74] والمؤرّخون الّذين لهم اطلاع ومعرفة بالشّعر، أدركوا أهميّة الشّعر في وصف الأحداث، والتّعبير عن الحالة الوجدانيّة اتجاهها، فتركوا مساحة كبيرة للشّعر في كتبهم.

توقّف المؤرّخون الأدباء عند الأحداث التّاريخيّة العظيمة، وعبّروا عن مشاعرهم اتجاهها، وكان الشّعر وسيلة ليبوح المؤرّخ عن تفاعله مع الأحداث الجسام، فوُجد مكتوبًا على نسخة كتاب *قرطاي*، مجموعة من الأبيات الشّعريّة، تصف الحدث الجلل، الّذي هزّ العالم الإسلاميّ، وهو سقوط الخلافة العبّاسيّة:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار — فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء: لا تفدوا — فما بقي في الحمى والحي ديّارا[75]

---

71 أرسطو، *فنّ الشّعر*، 26.

72 قاسم 1981، 78.

73 م. ن، 81.

74 م. ن، 83-85.

75 *تاريخ مجموع النّوادر* " أ"، صفحة الغلاف.

هذه الأبيات من قصيدة للشّاعر إبراهيم التّنوخيّ (1309-1397)، تعبّر عن الوضع الّذي حالت إليه بغداد مقرّ الخلافة العبّاسيّة، وتُظهر حجم الحزن والهلع الّذي أصاب الشّاعر لسقوط بغداد بيد المغول، فالشّعر كان له دور في وصف أحوال النّاس، والمصائب الّتي تحلّ بهم، من كوارث سياسيّة، أو طبيعيّة كفيضان النّيل أو وفائه،[76] أو هزيمة عسكريّة حصلت لجيش المماليك،[77] فعندما بعث الخليفة رسولًا إلى الشّام، الّتي أصابها البلاء، ووجد الرّسول الملوك قد ماتوا، والملك الصّالح أيّوب محبوسًا، نظم الشّعراء أبياتًا على البحر الخفيف؛ لوصف تلك الأحداث شعرًا، تُظهر حالة البؤس والعوز الّتي وصلت إليها البلاد:

جاء والأرض بالسلاطين تزهو وغدا والبلاد منهم أفول

أقفر الروم والشآم ومصر أفهذا مغسّل أم رسول[78]

وكان الشّعراء يتغنّون بالانتصارات الكبيرة الّتي كان يحقّقها الملوك والأمراء في عصرهم،[79] فيكتبون تلك الأحداث شعرًا؛ لتتناقلها الأجيال، وتتغنّى بها في مجالسهم، فعندما تمكّن الملك الناصر داوود من استرجاع بيت المقدس، وطرد النصارى منه، وثّق الشّعراء هذا الحدث العظيم ببعض الأبيات:

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلًا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطنًا *أن يبعث الله له ناصرًا*

فناصر طهّره أوّلًا وناصر طهّره آخرا[80]

في الأبيات السابقة إشارة إلى الملك النّاصر داود بن الملك المعظم عيسى الأيوبيّ (ت 656هـ)، الّذي حرّر بيت المقدس من النّصارى، فتشابه اسمه وفعله العظيم مع اسم وفعل القائد المظفّر الناصر صلاح الدين الأيّوبيّ (589 - 532هـ) ، وكذلك وثّق *الدّوادارِيّ* فتح مدينة

---

[76] م. ن، 195؛ بدائع الزّهور، 56، 71.

[77] *بدائع الزّهور*، 87-89، 96، 105، 223، 249.

[78] *تاريخ مجموع النّوادر* " أ"، 28.

[79] م. ن، 195.

[80] 80 م. ن، 29.

عكّا وسيس وطرابلس وغيرها من المدن،[81] وعبّر الشّعراء عن بهجتهم وسعادتهم بتلك الانتصارات.

وكان السّلاطين والأمراء يدركون أهميّة الشّعر في توثيق الأحداث العظام، فكان بعضهم إذا بنى دارًا عظيمة، يكتب على بابها أبياتًا شعريّة، حتّي يحفظ له التّاريخ صنيعه، فيوثّق الحدث العظيم شعرًا: [82]

دار بنيناها بإحسان من لم يخل دارًا قطّ من رفده
الملك الصالح ربّ العلى أيوب زاد الله في سعده[83]

والشّعر له دور في التّعبير عن مشاعر الوالي، فهو يلج إلى وجدانه، ويعبّر عن حالته النّفسيّة، ممّا يجعل القارئ أكثر تأثّرًا بالأحداث، وتفاعلًا معها، فالملك النّاصر عندما يمرّ على قلعة حلب، ويرى كيف دمّرها المغول، ينفطر قلبه حزنًا، وينشد أبياتًا من الشّعر معبّرًا عن حالته النّفسيّة:

سقا الله أكناف الشآم ومعهد به العهد باق لا يزال مواظبًا
ولا برحت أرض العواصم عصمة من السوء تسقى دائم الودق دائب[84]

والأبيات الّتي جاءت على لسان الملك النّاصر قرابة السّتين بيتًا، لم يكتبها المؤرّخ كلّها خشية الإطالة،[85] وفيها يظهر الملك حزنه ولهفته وشوقه إلى حلب، ويُظهر حالة الذّلّ والهوان الّتي وصلوا إليها، ويتذكّر الأيّام الخالية بها، وكيف تحوّلت الأمور، وكم هو متشوّق إلى ماله وأهله، وفي موضع آخر، يجد الملك النّاصر داوود صاحب الكرك في الشّعر متنفّسًا؛ ليعبّر عن

---

81 *كنز الدّرر*، 157، 181-182، 287، 295-299، 315-320.

82 *تاريخ مجموع النّوادر* "أ"، 65.

83 *كنز الدّرر*، 30.

84 *تاريخ مجموع النّوادر* "أ"، 104؛ *كنز الدّرر*، 58-59.

85 *تاريخ مجموع النّوادر* " أ"، 105.

حالة الضّيق، عندما وقع أسيرًا في سجن حمص، ويصف حالته النّفسيّة، والقهر الّذي يشعر به، وانقطاعه عن النّاس، وارتباطه بالله.[86]

والشّعر وسيلة ليعبّر بها المؤرّخ عن رأيه في العدوّ، أو بعض الأشخاص من الأمراء أو العامّة، فقد استخدمه المؤرّخون من أجل وصف فئة محدّدة من النّاس ونقدهم، كوصف العدوّ، أو بعض المماليك ببعض الصّفات الرّديئة، كقول *ابن إياس*:

نقصت عقلًا وفهمًا وزدت لحمًا وشحمًا
ورثت طالوت جسمًا ولم ترث منه علمًا[87]

هذا الوصف ذكره *ابن إياس* في أحد الأمراء الّذين قرّبهم السّلطان منه، وحصل على رتبة في الجيش، لكن ذلك لم يشفع له عند باقي المماليك، الّذين كانوا يتربّصون به لقتله، ويُظهر في الأبيات السّابقة استخفافه بهذا الأمير، وكرهه له.

كما أنّ *ابن إياس* كان حريصًا أن يُوثّق تسلطن المماليك، فلا يدّخر مناسبة تسلطن بها أحد من الملوك أو عُزل، إلا وكتب ذلك شعرًا، بعد أن يكتب ذلك نثرًا، وفي الأبيات الشّعريّة الّتي يؤرّخ بها لتولي الملك أو الأمير المنصب يظهر مشاعره، ورأيه نحوه: [88]

قد عادت التكة للحكم وانهدمت مصطبة الظلم
وصار طومان باي بين الورى يمشي الشاه مع الضغم
فيا له من ملك عدله قد شاع بين العرب والعجم[89]

وثّق *ابن إياس* نثرًا هدم السّلطان طومان باي المصطبة، الّتي بناها السّلطان الغوريّ للجلوس والحكم فيها، وأعاد التّكّة الّتي أنشأها السّلطان قايتباي للجلوس للحكم، ونقل

[86] *كنز الدّرر*، 16-17، بدائع الزّهور، 147.

[87] *بدائع الزّهور*، 17، 76.

[88] م. ن، 26، 76، 88، 96، 105، 107، 223.

[89] م. ن، 107-108.

الخبر مجرّدًا دون أن يُبدي رأيه فيه،[90] ولكن عندما أعاد كتابة الحدث شعرًا، أظهر رأيه، فالمصطبة كانت مكانًا للظّلم، فيها يبغي السّلطان الغوريّ على النّاس، أمّا السّلطان طومان باي الّذي هدمها ليزيل بذلك رمزيّتها للظّلم، وأعاد التكّة الّتي كانت في زمن السّلطان العادل قايتباي، فأعاد بذلك العمل لذاكرة الرّعيّة زمن السّلطان قايتباي الّذي كان يحكم فيه بالعدل بين النّاس، وقد عمّ عدله القريب والغريب كما يرى *ابن إياس*. فكان لاستخدام الشّعر في تاريخه دورًا مهمّا في البناء السرديّ، وإظهار السّببيّة للأحداث الّتي ينقلها *ابن إياس* لقرّائه، ممّا يجعل الأحداث أكثر منطقيّة عند المتلقّي. [91]

الختام

أظهرت الدّراسة أنّ المؤرّخين المماليك الّذين لهم خلفيّة أدبيّة، كان للشّعر في كتاباتهم التّاريخيّة دور مركزيّ في سرد الأحداث، فقد استخدموا العديد من الصّور الشعريّة البديعة في قصائدهم، وقد أظهر المؤرّخون قدراتهم في اختيار وتذوّق الأبيات الشّعريّة، فقد اختاروا ما رأوه من أفضل أعمال الأديب الّذي أرّخوا له، وطرحوا أراءهم النّقديّة بكلّ وضوح. كما أنّ الشّعر عندهم كان وسيلة لتوثيق الأحداث العظام، ووصف المعارك والجيوش، وتنصيب السّلاطين والأمراء، والأعمال الّتي يقدم عليها السّلطان، فواكب الشّعر جميع التّحوّلات والتّطوّرات في كتاباتهم التاريخيّة، وعبّر عن مواقفهم في الكثير من الأحداث، فكان وسيلة لينفّس المؤرّخ عمّا يجول في خاطره شعرًا.

[90] م. ن، 107.

[91] Guo 2018, 57- 77.

قائمة المصادر باللّغة العربيّة:

أرسطو، طاليس. *فنّ الشّعر*. ترجمة: عبد الرّحمن بدوي. مصر: دار النّهضة المصريّة، 1953.

ابن إياس، محمّد بن أحمد الحنفيّ. *بدائع الزّهور في وقائع الدّهور*. تحقيق: محمّد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1984.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف. *حوادث الدّهور في مدى الأيّام والشّهور*. تحقيق: محمّد كمال الدين عز الدّين. الرّياض: عالم الكتب، 1990.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف. *المنهل الصّافي والمستوفى بعد الوافي*. تحقيق: محمّد محمّد أمين. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1984.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف. *النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. مصر: وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، 1963.

ابن حجر العسقلانيّ، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمّد بن أحمد. *الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة*. تحقيق: محمّد عبد المعيد ضان، ط.2. حيدر أباد: مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، 1972.

ابن الدّواداريّ، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك. *كنز الدّرر وجامع الغرر*. تحقيق: بيرند راتكة وآخرون. مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1982.

ابن زنبل، أحمد الرمّال. *آخرة المماليك أو واقعة السّلطان الغوريّ مع سليم العثمانيّ*. تحقيق: عبد المنعم عامر. ط.2. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. *تفسير القرآن العظيم*. ط.1. بيروت: دار ابن حزم، 2000.

الزّركليّ، خير الدّين بن محمود بن محمّد. *الأعلام*. بيروت: دار العلم للملايين، 2002.

السّخاويّ، محمّد بن عبد الرحمن بن محمّد. *الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع*. ط.1. بيروت: دار الجيل، 1992.

العينيّ، بدر الدّين محمود. *السّيف المهنّد في سيرة الملك المؤيّد "شيخ المحموديّ"*. تحقيق: محمّد شلتوت وراجعه محمّد مصطفى زيادة. ط.2. القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1998.

العينيّ، بدر الدّين محمود. *عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان*. تحقيق: محمّد محمّد أمين. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1987-1992.

قرطاي، العزيّ الخزنداريّ. *تاريخ مجموع النّوادر ممّا جرى للأوائل والأواخر*. تحقيق: هورست هاين ومحمّد الحجيريّ. ط.1. برلين: كلاوس شفارتس، 2005.

قرطاي، العزيّ الخزنداريّ. *تاريخ مجموع النّوادر ممّا جرى للأوائل والأواخر*. تحقيق: عمر عبد السلام تدمريّ. ط.1. بيروت: المكتبة العصريّة، 2005.

المحلّي، جلال الدين محمّد بن أحمد، جلال الدّين بن عبد الرّحمن السّيوطي. *تفسير الجلالين*. بيروت: دار المعارف، 2002.

المقريزيّ، أبو العبّاس أحمد بن علي. *السّلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا. ط.1. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1997.

اليوسفيّ، موسى بن محمّد بن يحيى. *نزهة النّاظر في سيرة الملك النّاصر*. تحقيق: أحمد حطيط. بيروت: عالم الكتب، 1986.

قائمة المراجع باللّغة العربيّة:

أبو حسين، صبري فوزي. "معالم شخصيّة الظّاهر بيبرس (625-676هـ) في مرآة الشّعر المملوكيّ." *مجلّة كليّة الدّراسات العربيّة والإسلاميّة* 3 (2023): 691-742.

إسماعيل، عزوز علي. "تقنيات السّرد في الرّواية العربيّة: خلف قضبان الحياة نموذجًا"، *مجلّة وادي النّيل للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة والتربويّة* (2021): 411-454.

بوسكاية، شهرزاد. "السّيرة الشّعبيّة، الهويّة المحكيّة"، *مجلّة أطراس* 2/1 (2020)، 13-21.

الخالديّ، طريف. "كتابة التّاريخ عند العرب في عصور ما قبل الحداثة"، *Alif: Journal of Comparative Poetics* 41 (2021): 42-65.

الزوّزنيّ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد. *شرح المعلّقات السّبع*. بيروت: الدّار العلميّة، 1992.

سنجق، إبراهيم موسى إبراهيم. "الحماسة في شعر المعارضات في العصر المملوكيّ"، *مجلّة كليّة الآداب- جامعة المنصورة* 51 (2012): 1137-2000.

شاكر، محمود. *التّاريخ الإسلاميّ العهد المملوكيّ*، ط.5. بيروت: المكتب الإسلاميّ، 2000.

الشّوربجيّ، محمّد جمال حامد. *ابن زنبل الرمّال أحمد بن علي زنبل المحلّي حياته وتراثه الفكر*، ط.1. سوريا: نور حوران للدّراسات والنّشر والتّراث، 2020.

عبد الحافظ، محمّد حسين. "الحوار المتمدّن"، *المجلس العلميّ مجلّة الأيّام*، 2019.

علي، فاطمة حيدر. "الاقتباسات القرآنيّة في المدائح النّبويّة عند البوصريّ"، *حوليّات آداب عين شمس*، 46 (2018): 120-134.

قاسم، عبدة قاسم. "الشّعر والتّاريخ دراسة تطبيقيّة على شعر الحركة الصّليبيّة"، *المجلّة التّاريخيّة المصريّة*، 28/28 (1981): 65-116.

محمّد، عبلة الصّديق عثمان. "المقدمة الطّلليّة وأثرها في وحدة القصيدة الجاهليّة"، *مجلّة كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة بكفر الشيخ*، 3/2 (2018): 465-496.

قائمة المراجع باللّغة الإنجليزيّة:

Bauer, Thomas. "Mamluk literature as a means of communication." in *Ubi Sumus? Quo Vademus? Mamluk Studies-State of the Art*. Edited by Conermann, S. Goettingen: V&R Unipress; Bonn University Press, (2013): 23-56.

Bauer, Thomas. "Mamluk Literature: Misunderstandings and New Approaches." *Mamlūk Studies Review*, 9/2 (2005): 105-132.

Conermann, Stephan. "Tankiz ibn ʻAbd Allāh al-Ḥusāmī al-Nāṣirī (d. 740/1340) as Seen by his Contemporary al-Ṣafadī (d. 764/1363)." *Mamluk Studies Review* 12/2 (2008): 1-24.

Frenkel, Yehoshua. "Mamluk Historiography Revisited: Narratological Perspectives in Damascene Chronicles." in *Mamluk Historiography Revisited - Narratological Perspectives.* Edited by Conermann, S. Goettingen: Bonn University Press, 2018: 9-32.

Guo, Li. "Introduction: The *Dhayl Mirʾāt al-Zamān* in Modern Scholarship." in *Early Mamluk Syrian Historiography: al-Yunīnī's Dhayl Mirʾāt al-Zamān* 1. Leiden: Brill, 1998: 1-96.

Guo, Li. "Ibn Iyās, the Poet: The Literary Profile of a Mamluk Historian." in *Mamluk Historiography Revisited - Narratological Perspectives.* Edited by Conermann, S. Göttingen: Bonn University Press, 2018: 57-77.

Haarmann, Ulrich. "Mamluk Endowment Deeds as a Source for the History of Education in the late Medieval Egypt." *al-Abḥāth* 28 (1980): 31-47.

Haarmann, Ulrich. “Review of Weltgeschichte und Weltbeschreibung im Mittelalterlichen Islam, by Bernd Radtke.” *Journal of the American Oriental Society* 115/1 (1995): 133-135.

Hirschler, Konrad. "Islam: The Arabic and Persian Traditions, Eleventh–Fifteenth Centuries." in *The Oxford History of Historical Writing: 400–1400*. Edited by Foot, S., Robinson, Chase F. Oxford: Oxford University Press, 2012: 67–86.

Hirschler, Konrad. "Studying Mamluk Historiography. From Source-Criticism to the Cultural Turn", in *Ubi Sumus? Quo Vademus? Mamluk Studies-State of the Art*. Edited by Conermann, S. Goettingen: V&R Unipress; Bonn University Press, 2013: 159-186.

Little, Donald P. "The Recovery of a Lost Source for Bāḥrī Mamlūk History: Al-Yūsufī's Nuzhat al-Nāẓir fī Sīrat al-Malik al-Nāṣir." *Journal of the American Oriental Society*, 94/1 (1974): 42-54.

Mazor, Amir. "The Topos of Predicting the Future in Early Mamluk Historiography." in *Mamluk Historiography Revisited - Narratological Perspectives.* Edited by Conermann, S. Göttingen: V&R Unipress; Bonn University Press, 2018: 83-101.

Onimus, Clément. "Al-ʿAynī and His Fellow Historians: Questioning the Discursive Position of a Historian in the Academic Field in the Cairo Sultanate." in *New Readings in Arabic Historiography from Late Medieval Egypt and Syria*. Edited by Van Steenbergen, J., and Termonia, M.. Leiden: Brill, 2021: 349-373.

Olsen, Rasmus Bech. "If a Governor Falls in Damascus: Early Mamluk Historiography Analyzed through the Story of Sayf al-Dīn Karāy al-Manṣūrī." in *New Readings in Arabic Historiography from Late Medieval Egypt and Syria.* Edited by Van Steenbergen, J., and Termonia, M.. Leiden: Brill, 2021: 319-348.

Seidensticker, T., and Stephan C. "Some Remarks on Ibn Ṭawq's Journal *Al-Taʿlīq* 1 (885/1480 to 890/1485)", *Mamlūk Studies Review*, 11/2 (2007): 121-135.

Shoshan, Boaz. *Poetics of Islamic Historiography: Deconstructing Tabari's History*. Leiden: Brill, 2004.

Van Den Bossche, Gowaart. "The Maghrebi Vizier and the Haughty Copt. Historiography, Polemics and Narrative in a Mamluk-Period Anecdote." *Annales Islamologiques*, 52 (2018): 353-372.

Van Steenbergen, Jo. "History Writing, Adab, and Intertextuality in Late Medieval Egypt and Syria: Old and New Readings." in *New Readings in*

Arabic Historiography from Late Medieval Egypt and Syria. Edited by Van Steenbergen, J., and Termonia, M. Leiden: Brill, 2021: 1-29.

Waldman, Marilyn Robinson. *Toward a Theory of Historical Narrative: A Case Study in Perso-Islamicate Historiography*. Ohio: The Ohio State University Press, 1980.

Yosef, Koby, "al-Maqrīzī's Sulūk, Muqaffā, and Durar al-ʿUqūd: Trends of "Literarization" in the Historical Corpus of a 9th/15th Century Egyptian Shāfiʿī Religious Scholar", in *New Readings in Arabic Historiography from Late Medieval Egypt and Syria*. Edited by Van Steenbergen, J., and Termonia, M. Leiden: Brill, 2021: 33-111.

قائمة المصادر باللّغة الألمانيّة:

Haarmann, Ulrich, "Auflösung und Bewahrung der klassischen Formen arabischer Geschichtsschreibung in der Zeit der Mamluken", *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft*, 121 (1971): 46-60.

Haarmann, Ulrich. *Quellenstudien zur frühen Mamlukenzeit*. Freiburg: Robischon, 1969.